

لعب الأطفال

— ١ —

لم نقصد من معالجة هذا الموضوع أن نكشف عن حقيقة اللعب وعلمته ، وإنما أردنا أن نستنتج من مظاهر اللعب في ميدان الشعور أولاً واللاشعور ثانياً ما يعيننا على الحكم على قيمته السيكولوجية .

والسبيل إلى هذه الغاية هو معرفة ضروب اللعب المختلفة المصاحبة لمراحل النمو الإنساني بقطع النظر عن جملة النظريات التي حاولت أن تفسره تفسيراً فلسفياً في الأغلب .

وإذ نحاول أن نحكم على مظاهر اللعب من الوجهة السيكولوجية تعرض لنا جملة من نواحي النشاط الإنساني تداخلت على نحو لا يسمح في يسر بتعرف موضعها من تلك الاصطلاحات المتوارثة التي قسمت الفعل الإنساني إلى : لعب وعمل وإجهاد^(١) فكان من واجبنا أن نحدد دلالة اللعب قبل أن نطلقه على مظاهر قد لا تكون منه في شيء . فقد كان التمييز قائماً على التفرقة بين اللعب والجد باعتبار أن أولهما نشاط لا غاية له أو هو غاية ذاته ويصاحبه سرور ولذة . . . وأن الثاني عمل قصد منه تحقيق غاية واحتمل فيه من المشقة والجهد ما لا يلحظ أثناء اللعب بل قد يكون معه من بذل الجهد الإرادي ما يحوله إلى إجهاد وملل يضيق معه المرء كل الضيق . وقد قامت بعد ذلك حركة ترمى إلى التوفيق بين الجد واللعب بحيث يمكن اعتبار العمل الذي يؤدي بشكل متقن ودون تكبد مشاق وروح مرحة ، لعباً ؛ كما يمكن اعتبار اللعب الذي يؤدي عن طريق فرض خارجي جداً . وفي هذا نقل

الحكم من الفعل إلى الاتجاه العقلي النفسى الذى يؤدى به هذا الفعل^(١) . وعلى الرغم من أن هذه النظرة الأخيرة تضمنت فى شكلها نقد النظرة الأولى وبيان فسادها بتركيز المشكلة حول المحور السيكلوجى الفردى إلا أنهم لم تبين الأساس الذى اعتبرت معه بعض الأفعال جداً وبعضها الآخر لعباً . وإنه لمن الخلط العجيب فى دراسة الحالات النفسية ما ذهب إليه من إمكان اعتبار العمل الذى يؤدى بنوع من الإقبال التلقائى والسرور ، أيا كان ، من بين ضروب اللعب . أو أن نوعاً من الألعاب أدنى بنوع من الشعور بالواجب يكون عملاً . فهذا هروب فى حقيقة الأمر من المشكلة إذ لم يحل لنا إلا ما يصاحب أنواع الأفعال والنشاط من وجدانات . فالسبيل الصحيح هو أن نحلل جملة من الأفعال التى نسميها فى العادة لعباً وجملة أخرى نطلق عليها أعمالاً ، ثم نوازن بينهما لتبين أساس التفرقة الحقيقى . والموازنة تتجه أول الأمر إلى بيان العلاقة من حيث : التلقائية والغائية والنفعية واللذة والجهد والشعور بالمسؤولية . وقد ذهبت الكثرة إلى أن فى اللعب تلقائية قد لا توجد فى العمل وإلى أن اللعب لا يمتاز بفرض خارج عنه ولا يشعر فيه بألم أو جهد أو مسؤولية . والواقع أن فى الأعمال كما فى الألعاب تلقائية إذ أننا كثيراً ما نقوم بها من تلقاء ذاتنا وبدافع خاص منا ، كما أن فى بعض الأفعال التى نطلق عليها ألعاباً ، ما نقوم به مجبرين بدافع من المرشدين . أما عن الغائية الخارجة عن الفعل والداخلية فيه ، فهذا ما يبين لنا التأمل الباطنى الدقيق فساد القول به وذلك لأن القانون العام المميز للسلوك عامة هو الغرضية أو الغائية . وكل فعل أثناء قيامنا به غاية نفسه وإن أدى بعد ذلك لتحقيق غرض آخر أو نفعية مترتبة عليه . وذلك لما نشاهده من توجيه النشاط لتحقيق الفعل واندماج الشعور بهذا الاتجاه . أما عن اللذة فالقول فيها مطابق للتلقائية لتساوق الحاجة النفسية مع الأفعال التعبيرية لتحقيقاً لقانون الاتزان . أما عن الجهد فلم يعد أساساً للمقابلة حيث أن بذل الطاقة والمجهود شئ والشعور بهذا

المجهود شيء آخر لا يتوقف على نوع الفعل، عملاً كان أو لعباً، بل على اتصاله بالميول وكلاهما معلق عليها. وإذن فلم يبق غير الشعور بالمسؤولية بما تقتزن به من قيم نفعية هي حلقة الاتصال بين وجهة النظر الاجتماعية ووجهة النظر النفسية. إذ أن التمييز بين ضروب الفعل الإنساني لم يبق إلا عند وجود بعض الفوارق التي باعدت بين خصائص المجتمع وحاجاته. وخصائص الفرد وحاجاته. ولهذا كان كل فعل مرتبط بنوع من أنواع المسؤولية الاجتماعية وما يتعلق بها من قيم نفعية كان جدياً، وإلا كان لعباً بالنسبة للفرد.

وعلى هذا يمكن أن نعرف اللعب بأنه « ضرب من ضروب التعبير عن الذات يأتي كمقابل من المتقابلات التي تميز الأفعال ونواحي النشاط التي ترمى إلى إحداث التوازن في الشكل الإنساني الثنائي العناصر، سواء كان هذا الشكل فرداً أو مجتمعاً » ولكي نقف على صحة مقومات هذا التعريف يجب أن نتناول حقيقتين من أهم الحقائق وهما: الشكل الثنائي العناصر في الفرد والمجتمع ثم لعب الفرد ولعب المجتمع فالشكل الثنائي العناصر نقصد به ما جمع بين الجسم والنفس وكلا العنصرين متلازمان ومتساوقان في النمو والحالة الصحية، وكلاهما محكومان بالنشاط الحيوي العام الذي ليس فيه ما يمكن أن يسمى مضيعة Waste. وقوام هذا النشاط لا يكون إلا بالتنويع الذي يكفي تناول الحاجات الإنسانية جميعها بيمولوجية كانت أو نفسية. فما ارتبط من هذه الأفعال بالمسؤولية والنفعية الاجتماعية سمي جدياً وما انفصل عنها سمي لعباً وما يقال عن الفرد يصدق على المجتمع الذي يحكمه نشاط مستمر دائم، الجدم منه أعمال وواجبات، واللعب منه ما يتخذه المجتمع من مظاهر خاص في الأعياد والحفلات وما إليها. وفي هذا ما يفسر لنا لعب الفرد ولعب المجتمع وكيف أن بعض ضروب اللعب المعروفة قد تكون بالنسبة للفرد من الوجهة النفسية عملاً وإن لم تكن كذلك في نظر المجتمع كالاشتراك في ألعاب الأولمبياد أو المباريات الشعبية إلخ... فهي لعب للمجتمع وقد تكون عملاً بالنسبة للفرد. وهذا ما يفسر لنا أيضاً لماذا كان مدرب الألعاب يتخذ من مهنته عملاً وإن كانت في نظر المجتمع لعباً.

ومن هذا يتضح لنا أن اللعب لا يعتبر مقابلاً للعمل والجد لأن كليهما نوع من الفعل الإنساني وكلاهما جد لا يختلفان إلا على أساس اجتماعي نفسي . كما أن كليهما تعبير عن الذات بحسب الموقف ، فردياً كان أو اجتماعياً . وسنرى كيف يصدق هذا التعريف عندما نعالج أنواع اللعب وما يتصل منها بالشعور واللاشعور .

٢ - أنواع اللعب

ونحن في معالجة أنواع اللعب نقف أمام محاولات كثيرة لعلماء النفس بعضها يتعلق بأطوار النمو ، وبعضها يتعلق بأشكال اللعب ، وبعضها يبحث ارتباطها بالفرد والبيئة ، وبعضها يبحث صلتها بالشعور واللاشعور . وكل هذه البحوث مرتبطة تؤدي إلى فهم القيم السيكولوجية للعب .

أنواع اللعب من حيث ارتباطها بأطوار النمو : (١)

(١) من الميلاد إلى سن السابعة : وفي هذه المرحلة يكون اللعب إما تجريبياً أو تقليدياً أو تخيلاً أو تمثيلاً . وفي جميع هذه المظاهر يكون اللعب فردياً حراً مميزاً بالحركة الجسمية أكثر من غيرها . ففي اللعب التجريبي يلعب الطفل مدفوعاً بحب الحركة التي يقصد بها تكوينه إلى التعرف على ما يحيط به واكتساب الخبرات المتعددة عن طريق الحواس كتممص الأشياء بالقبض عليها وتأملها ببصره ولا سيما إذا كانت ذات ألوان زاهية بهيجة . وفي اللعب التقليدي الذي يبدأ غالباً منذ الشهر التاسع يكون الطفل كمرآة تعكس كل ما يحدث أمامه من حركات وأفعال . وفي اللعب التخيلي في نحو السن الرابعة يبدأ الطفل في تخيل نفسه بطلاً في قصة خرافية قد يبتدعها إن لم يكن قد سمعها من قبل . وقريب من هذا النوع وأعم منه ما يسمى

(١) يمكن الرجوع إلى المكتب الآتية لزيادة الإيضاح :

Reaney : The place of play in education.

Curtis : Play in education

Boyce : Play in the infant's school.

باللعب التمثيلي فيقوم الطفل غالباً بتمثيل ما يجري حوله من أحداث وما يكتسبه من معارف عن الأبطال والزعماء والشعوب أو ما يغلب في بيئته من ظواهر حتى لقد لاحظت ريني في مدرستها أنها عندما أعطت للأطفال صلصالا يلعبون به في وقت من الأوقات عنى أغلبهم بتمثيل النعوش والجنائز وعزت هذا إلى كثرة الوفيات في ذلك الحى وقتذاك .

(٢) من سن ٧ إلى سن ٩ :

أما الدور الثانى من أدوار اللعب فتغلب فيه الفردية بحيث يكون الطفل نفسه هو محور أعباءه ليظهر قدرته وتوقه على أقرانه محاولاً فرض شخصيته عليهم . وأكثر هذه الألعاب إنما تكون من نوع الصيد والمطاردة . وترى ريني أن مثل هذه الألعاب من شأنها أن تلفت الانتباه لكل اللاعبين كما أنها تميل إلى اعتبارها معبرة عن النظرية التلخيصية في تعبيرها عن الفرائز ومكتسبات الأجيال الإنسانية القديمة

(٣) من سن ٩ إلى سن ١٢ :

فإذا ما انتقل الطفل إلى الدور الثالث قويت فيه رغبته في إظهار شخصيته وعبادة البطولة معبراً عن هذا الاتجاه بمنافسته لأقرانه والعمل على الظهور عليهم . ومن أجل هذا اعتبرت هذه المرحلة بدء تكوين نواة الألعاب الجمعية التى تبدأ بالبحث عن خصم أو منازل أو مناظر فى الحياة الجماعية .

(٤) من سن ١٢ إلى ما بعدها :

ويظل هذا الاتجاه فى القوة حتى تقوى الروح الاجتماعية فيكون التعاون مظهراً لقوة الشخصية ، والتضحية مظهراً للأمانة للمبدأ ، ويبدأ الخضوع للقوانين فى الألعاب المنظمة والمسابقات المحددة .

هذا التقسيم الذى ارتأته ريني وأمثالها يرينا اللعب كتعبير ضرورى ، ولكنه لايساعدنا على فهم الفروق الفردية فى اللعب واتجاه بعض الأشخاص إلى أنواع من اللعب دون الأخرى ، مما يهمنى فى ميدان التربية ، وهذا ما سنعالجه فيما يلى

٣ - أنواع اللعب من حيث أشكالها

فإذا نظرنا إلى اللعب من حيث أشكالها كما نظر ماسون^(١) فإننا نجد مجموعات من الألعاب يمكن انتماء كل أفرادها إلى فسيحة واحدة . ولكننا نعجز في الواقع عن حصر الألعاب المختلفة وتجميعها . وليس يهمننا هذا التجميع في شيء إلا بقدر ما يبين لنا لماذا يلعب بعض الأطفال « البلي » ، بينما لا يلعبه الآخرون الذين يفرحون بالبالونات مثلاً بينما لا يغرم بها السابقون . ويرجع ماسون هذه الفروق الفردية إلى أثر العادة في اللعب . فالعادة تحدد نوع اللعبة التي يغرم بها الطفل كما تحدد طريقته في القيام بها وأسلوبه في أدائها . ويرجع ماسون تكوين هذه العادات إلى عاملين أحدهما سيكولوجي والثاني يئى . أما الأول فهو ما تبعثه هذه اللعبة في الطفل من سرور وقدرة توفيقه فيها وتكراره لها . أما الثاني فهو ما اشتهر في الحى من الألعاب وما كان في متناول يد الأطفال منها . ولا يخفى أن في العامل الأول ما يفسر لنا الفروق الفردية باعتبار استعدادات كل فرد من فسيولوجية ونفسية في اكتساب المهارات وما إليها — كما أن في العامل الثاني ما يفسر لنا فروق الشعوب في الألعاب التي يمتاز بها أفرادها .

ولكن هذه الاعتبارات في الفروق الفردية لم تمنع ماسون من النظر إلى الاتجاهات الإنسانية العامة المشتركة بين جميع الأطفال في اللعب وذلك بحسب النزعات والرغبات الفطرية العامة من حب للمخاطرة والأمن والاعتراف بالذات ورغبة الاشتراك في مجموعة . وهو في هذا يميل أيضاً للقول بمثل ما قالت به رينى في ميل ظاهر للنظرية التلخيصية التي التجأ إليها عندما أراد أن يستند إلى الغرائز المتوارثة في تفسير بعض الألعاب والتي ليس لها صدى وتمثيل واضح في حياتنا الحضرية الجديدة .

وبمثل ما أنتقدنا به اتجاه رينى ننتقد اتجاه ماسون من أن العادة إن فسرت لنا إلى حد ما الفروق الفردية ، إلا أن النظرة لما تزل سطحية ؛ فإن هناك عوامل

نفسية خاصة وعوامل بيئية خاصة تؤثر في الأفراد كما تبين لنا الاتجاهات باكثر وضوح . مما سنعالجه في هذا الرأى الأخير .

٤ - أنواع اللعب من حيث ارتباطها بالفرد والبيئة

فإننا إذا أردنا أن نصنف اللعب باعتبار مظاهره الخارجية بعيداً عن صلته بمراحل النمو أمكننا أن نجعلها تحت ضروب ثلاثة : أولها ما بدت فيه الحركة مقصورة على شخصية الكائن الحى متغلبة في مظاهره الجسمية بدون الاتصال بأشياء البيئة المحيطة . وثانيها ما أشرك فيه بعض أشياء المحيط الخارجى وكانت الحركة إما متغلبة في المظاهر الجسمية وإما متغلبة في المظاهر العقلية . وثالثها ما أشرك فيه أكثر من شخص واحد وهو الألعاب الجماعية .

أما الضرب الأول فنعنى به ما يصدر عن الطفل من حركات جسمية كالزحف من لوازم النمو والتعرف على الأشياء باللمس وباستخدام الحواس وهى من حيث مظهرها الخارجى يقابلها عند الكبار مجرد الجرى أو مجرد الحركات الجسمية الحرة وقد يتأثر في هذه الحركات بالتقليد أو قد تكون تلقائية يوحى بها الموقف العضوى . أما الضرب الثانى فنوع منه يظل فيه جانب الحركة الجسمية متغلبة وإن اشتركت فيه مواد المحيط الخارجى من أكر وسهام وبللى وبمب الخ ... عند الصغار ، وقد يقابلها عند الكبار أشياء أخرى تناسبهم . ونوع ثان يختلف عن سابقه فى تغلب جانب الحركة العقلية بينما يكون الجسم أكثر هدوءاً والتأمل أكثر انطلاقا والتخيل أكثر انسراحاً فيتخذ من المواد الخارجية غير المحددة بشكل معين كالرمل والماء والطين والعرائس والعصى والألوان أدوات لدورات الفكر وتكويناته القصصية والتعبيرية عامة ، فى الميدان الذى نسميه باللعب الإيهامى أو التخيلى أو التمثيل . وفى كلا النوعين من اللعب فى هذا الضرب نستطيع بفحص خصائص المواد المستخدمة فى الألعاب أن نقف على الفروق الفردية بحسب ما تكشف عنه من ميول الأشخاص الواقعية العملية أو التخيلية الخ ... أو بحسب دلالاتها الصريحة

أو الضمنية على الصحة العقلية والأمراض النفسية أو بحسب استخدامها على ما تدل عليه من الوجهة الشعورية كتمثيل للبيئة واستغلالها. أو بحسب استخدامها كرموز لأشياء في اللاشعور ، وما إلى هذه الوجهات مما يفسر لنا ما أغفله ماسون في اعتماده العادة كأساس لتوضيح الفروق الفردية مع الاحتفاظ بدلالات الاتجاهات العامة التي يشترك فيها الأطفال كمجموع بشري .

أما الضرب الثالث فهو هذا الذي نراه في مجموعة من الأطفال أو الكبار يلعبون معاً ألعاباً تعبر عن اتجاهاتهم التي يرضونها من المجتمع والتي يمتصونها من البيئة المحيطة محتفظين بطابعهم الشخصي في كل ذلك. وهي ما تفسر لنا الألعاب الجماعية بما فيها من روح المنافسة والزعامة والتعاون والإخلاص والتضحية والخضوع للقوانين الاجتماعية المنظمة. ولعل هذا التقسيم يساعدنا على فهم اللعب من أفق أوسع في الوقت الذي يضم بين جوانحه مزايا التقسيمين السابقين . فهذه الضروب تساق أطوار النمو وتتمايز بسد القصور الذي وجدناه عند ماسون إذا أخذنا الحركة الفردية ثم المادة ثم التجمع أساساً ثلاثة لفهم كل من الاتجاهات العامة والفروق الفردية على شكل أكثر دقة وأجدى نفعاً.

٥ — اللعب من حيث ارتباطه بالشعور واللاشعور

على أن صواب هذه النظرة قد يزداد وضوحاً إذا بحثنا اللعب لافي ميدان ارتباطه بالفرد والبيئة فحسب ، بل في ميدان ارتباطه بالشعور واللاشعور أيضاً . فإننا إذا اعتبرنا اللعب معبراً عن الذات في نشاط ضروري لإحداث التوازن في الكل الإنساني ساعدنا هذا التقسيم الأخير في فهم موقف الطفل في بيئته من الألعاب المختلفة وفي فهم القيم السيكولوجية والاجتماعية للعب . وهنا أسارع فأقرر أن ماسون لمس هذه المشكلة بصورة طيبة ، فقد قرر المبدأ العام الذي ذهبنا إليه في تحليلنا وهو المبدأ الخاص بالتعبير عن الذات . وحاول أن يدلل عليه من النواحي الثلاث : البيولوجية والنفسية والاجتماعية من حيث علاقته بالحياة الشعورية ... فهو يرى أولاً أننا من الناحية البيولوجية معدون بتكويننا الفسيولوجي والتشريحي لنوع خاص من

الحركات كالجرى والقفز . وبحسب تطور التكوين العضوى تتطور مظاهر اللعب وفى حدود هذه الاستعدادات والقدرات كانت أنواع الألعاب والمهارات المتعلقة بها كما أنه فى حدود الحالة الراهنة لهذه الاستعدادات الجسمانية تكون مظاهر النشاط المعبرة عنها . ففى حالة الامتلاء بالطاقة تقوى مظاهر اللعب وفى حالة الارتهاء والتعب والأمراض تقل حتى تسكاد تنعدم إذ تعبر هذه الحالات عن نفسها بما يناسبها من أنواع النشاط المستمر المتصف بالامتداد والديمومة . ويرى ثانياً أن ميولنا النفسية تعدنا بدورها لضروب من التعبير الضرورى التى تتخذ من اللعب مظهرًا لها . ولاشك أن هذه الميول مرتبطة بنمو الجهاز العصبى من جانب ونمو الخبرات من جانب ثان وأن التفاعل المستمر بين هذه العناصر كثيراً ما يؤدى إلى ضروب من اللعب ، مما استغلته مدرسة التحليل النفسى فى دراسة اللاشعور مما سنوضحه بعد حين . وثالثاً: أن هذا السكيان الإنسانى الجسمى النفسانى إنما يتفاعل ككل مع البيئة التى لا بد أن يوجد بها الفرد . وهذا التفاعل مع البيئة يعطى قيماً آخر لأنواع التعبير عن الذات بطريق اللعب وهنا يكون عمل المواد التى تتوفر فى البيئة والعادات التى تطبعها والاتجاهات التى تسودها . وفى أثناء هذا التفاعل الكلى المعقد تظهر الفروق الفردية بحسب ردود الأفعال المختلفة فى البيئة الواحدة أو البيئات المتعددة والمجتمعات المختلفة مما يفسر لنا اختلاف الحركات الجماعية والألعاب الشعبية المنظمة .

ومثل هذا التفسير عام يقوم على المبدأ المنهجى الذى جرت عليه الدراسات النفسية الحديثة عموماً فى دراسة الحالات الشعورية باعتبار كلاثنائياً يتفاعل مع البيئة يتكيف وفقها أو يكيفها وفقه . ولعل مميزات هذه الدراسة تتضح بمقابلتها بالحالات اللاشعورية التى نرى قبل الخوض فيها تأكيده هذه النتيجة التى انتهينا إليها وهى أن مبدأ الفردية يقوّمه عوامل التفاعل بين الذات والمجتمع متدرجة من مركزية الأنا إلى الغيرية التى يساوقها نمو الشعور الاجتماعى . وهذا الشعور الاجتماعى يأخذ فى النمو منذ الوقت الذى يتجه فيه الطفل إلى الاتصال بالبيئة واستخدام ما بها من أشياء ومحاولة التعبير عما عرفه عنها وما اكتسبه منها فى أعباءه ويكون هذا كبساط تمهيدى

أو أراضية إعدادية لظهور الشكل الشعوري المبدأ الاجتماعى الذى يكتمل بالاتصال مع الأشخاص فى الألعاب المنظمة .

وهذه الفكرة هى ما تكشف عنه فى الواقع دراستنا للحالات اللاشعورية أيضاً التى تهتم من بين ضروب اللعب الثلاثة التى قدمناها بالضرب الثانى وهو الضرب الذى ميزناه بإشراك البيئة وإشباعها وباتجاه الحركة إما إلى الجسم وإما إلى العقل . ومدرسة اللاشعور إنما تتخذ فى هذا الصدد ، المواد التى يلعب بها الأطفال وما يطلقون عليها من أسماء وتعبيرات ، أساساً لفهم حالتهم النفسية ^(١) . فإذا كانت هذه المواد ولا سيما ما لها شكل معين محدد تؤخذ كدلالات لأشياء حقيقية موجودة فى البيئة كان هذا داحلاً فى دراسة الحياة الشعورية واعتبر هذا الضرب من اللعب تعبيراً عن تأثير البيئة المباشر وعن عملية تثبيت المعارف والمهارات . ولكن إذا كانت هذه المواد ولا سيما ما ليس له شكل محدد فلا يحد من الخيال وبقيدته ولا يمنعه من أن يحمل الأشياء أكثر من معناها فستستخدم كرموز ودلالات عن حالات نفسية فى ميدان قصة خيالية مبتدعة أو محفوظة ، فهذا مانر بطله باللاشعور وما يطلق عليه اسم اللعب الإيهامى فى أغلب أشكاله .

ولقد اختلف فى النظر إلى هذا الضرب من اللعب . فحاول البعض أن يفهموا منه مظهراً واحداً فى تعدد أشكاله واعتبروها جميعاً مشتركة فى طبيعة واحدة تقوم على مبدأ واحد . فرسل Russel ^(٢) لا يرى فيها إلا أنها ضرب من إشعار الذات بالسلطة والسيطرة وهو يبالغ فى هذا الاتجاه لدرجة أنه يضم أنواع التعرف على الأشياء واختبارها وتمثيل البيئة معاً ، ويديرها تحت هذا المبدأ مستشهداً بما كان يلاحظه على طفله من رغبته فى تقمص الشخصيات الغالبة القوية مهما تكن بغية إلى مجتمعه كشخصية اللص ذى الحيلة القوية أو الشيطان المارد إلخ ... ويرى آخرون من أتباع فرويد Freud فى جميع هذه المظاهر تعبيرات عن الغريزة الجنسية . ولا تختلف

(١) راجع فى هذا العدد ما جاء عن اللعب وصلته بالتحليل النفسى فى مقال الدكتور صبرى جرجس : الاتجاهات الحديثة فى الطب العقلى للطفل .

التعبيرات إلا باختلاف الحالة المرضية عن الحالة الصحية^(١) . ولكن هناك آخرين من أمثال مارجريت لونفيلد^(٢) تحاول أن تعدد أنواعاً من مشاهداتها ومشاهدات العلماء التجريبية لتفرق بين ضروب مظاهر هذا اللعب الإيهامي . ونستطيع من جملة أمثلتها أن نركز النتائج باعتبار ثلاثة أسس نستنبطها من كلامها وهي : اللغة والمادة والسن . فباعتبار اللغة نجد تقسماً يؤدي بنا إلى التمييز بين مظاهر اللعب التي تسبق ظهور اللغة أو القدرة الكلامية وبين مظاهر اللعب التي تليها . وتستند في هذا إلى بعض أبحاث بياجيه Piaget الذي يرى أن أكثر إجابات الأطفال في المرحلة المتقدمة لظهور القدرة الكلامية وجمع الألفاظ تكون مشبعة بصور «الفتنازيا» التي يخلقونها بأنفسهم ويعيشون فيها ويكون أكثرها دائراً حول أنفسهم . فإذا ظهرت اللغة رأينا انتحاء إلى الاتصال بالآخرين يصحبه ميل إلى معرفة العالم الخارجى وتمثيلة في الألعاب كتما كيد للخبرات أو المعارف . ومثل هذا نجده عند جرين Green^(٣) في الفصل الذي عقده عن النمو والتطور ، وقد رسم له رسماً بيانياً يبين فيه كيف أن أحلام اليقظة تتجه في الدور الأول إلى تأكيد الذات ثم تتطور إلى تعرف البيئة فإذا وصلنا إلى مرحلة المراهقة وجدناها تنصب في الأغلب على الاتجاهات الجنسية . وترى لونفيلد إلى ذلك أن عند ظهور القدرة الكلامية يبرز مظهر آخر وهو موسيقية الألفاظ ووحيتها في نفس الطفل . فإذا كان اسم شخص ما ضحاً ذا رنين مفرح ، أمكن أن يستخدمه الطفل في أعباء الإيهامية للدلالة على عاصفة أو صوت طبل أو ما يقاسب هذه الضخامة من مظاهر الطبيعة أو حالاته النفسية كالغضب أو العنف . وتعرض لنا لونفيلد أمثلة طريفة من هذا النوع تدلنا على مدى تأثير الحياة اللاشعورية في سلوك الطفل .

أما باعتبار المادة المستخدمة في ألعاب الأطفال فهو بحث طريف ترى هي فيه

McCallister : Growth of Freedom in Education (١)

Margaret Lowenfield : Play in Childhood (٢)

H. C. Green : The Day - Dream (٣)

أن اللعب الإيهامي يعطى فرصة للتعبير عن اللاشعور باستخدام الأشياء التى تقبل مادتها تأويلات كثيرة . والغرض من هذه الخاصية فى المادة أن يتخيل الطفل راضياً ليحدث توازناً نفسياً بين الصور التى يريدونها والأشياء التى يرمز بها إليها فيستريح ويطمئن . ودليل ذلك أنه فى حالة اللعب الذى يقصده به تمثيل البيئة يتخذ الطفل مادته من أشياء لها شكل محدد وجشطات ظاهر يناسب بيئته وبين المنزل والنهر والشجرة وما إليها مما يريد تمثيله صدى لاتصاله ببيئته .

أما باعتبار السن وهو اعتبار هام جداً فيشاهد أنه من ٣ — ٥ مرحلة إمعان فى « الفتازيا » التى تدور حول حياة الطفل الخاصة بدون كبير تعلق بما حوله . وأنه من ٥ — ٧ يضمن الطفل ألعابه أفكاره ومشاعره وانفعالاته وجزءاً من خبراته الخاصة وجزءاً من إلمامه بالبيئة المحيطة به ، وضرباً من تأثره بالسلطة المؤثرة عليه فى حياته وهكذا . . . حتى المراهقة ، بحيث إذا جاوزنا سن الفسوج اختلطت جميع هذه المظاهر لتكوين ما يسمى « بالشخصية العامة » للرجل أو المرأة مع تغلب ناحية من النواحي أحياناً : فنية أو علمية الخ . . . فكان أشكال اللعب الإيهامي المرتبطة باللاشعور هى ما كان منها متمثلاً فى أحلام اليقظة واستخدام الرموز وما ينشره كيان الطفل الخاص من مشاعر وانفعالات يمثلها فى ألعابه . هذا إذا لم يكن تمثيل الطفل لمنظر معين هو تعبير عما رآه مجرد تكراره وإنما لإيجاد مسرح مبتدع يناسب الدور الذى يلعبه بخياله فى هذا المجال ويكون هو أو غيره أحد أبطاله .

ولقد تتبعنا لوفيلد كثيراً من حالات هذا اللعب وخلصت منها إلى العناصر الآتية فى اللعب :

- ١ — التعبير عن رغبة لاشعورية راهنة من انفعال أو رغبة أو خبرة قديمة .
- ٢ — خيال مفرح واسع يتخذ مجاله فى الرموز المختلفة .
- ٣ — خصوصية وتقدم الخيال والعمليات العقلية بشكل ملحوظ إذ قد يقوم الطفل بعمل منظر يجرى فيه فصلاً خاصاً ثم يأتى بعد ذلك فيغير من هذا المنظر قليلاً فى شكل مترقى يناسب إدراكه وحالته الصحية ومدى تكيفه مع بيئته .

وفي هذا العنصر الأخير تبدو وظيفة اللعب السيكولوجية بوضوح فهو تعبير عن الذات في تحقيقها ونموها وترقيتها . فهذه الخصوبة والتقدم التي نلاحظها في الألعاب تدلنا على ثلاث خصائص هامة . الأولى التسامى والثانية الإبداع والثالثة الروح الاجتماعية . فليس اللعب تصويراً وضعياً للحالات النفسية الشعورية وإنما هو عامل نمو وترقى يدل عليه تكامل نفسى وابتداع فنى وفردية تتخذ مقوماتها لا من التركيز حول الذات بل من التفاعل الإيجابى مع البيئة والمجتمع . فاللعب للطفل السوى إذن عمل وتفكير وفن وتنفيس وبدونه لا يتم للطفل نمو انفعال مناسب ولا حياة اجتماعية موفقة . . . فالطفل الذى لا يلعب الألعاب المألوفة لمن فى سنه طفل متأخر أو مريض . وعن طريق نشاطه وتعبيره الحر الذى يتخذه فى ميادين أخرى يستطيع الطبيب النفسى أن يقف على مقومات المرض وأن يسعى به إلى الشفاء . . . وكثيراً ما يكون سبيل العلاج هو اللعب ذاته إذ يرى فيه المربون نوعاً من التنفيس عن الأزمات قد يساعد الطفل على الرجوع إلى الحالة الاتزانة التى كان قد فقدها فى فكره أو سلوكه أو فى شخصيته بوجه عام . بل أنه يساعد على الترقى بهذه الحالة الاتزانة إلى حياة إيجابية فعالة مبدعة . . . فإن منا فى اللعب من خصائص التفاعل مع المواقف المختلفة — فى قدرة ظاهرة على التكيف والتكيف — سيطمع حياة الطفل العملية بالنجاح فيما يقدمه له من نواحي التغيير والمرونة . . . عند قيام الاحتمالات الكثيرة التى عليه أن يختار أنسبها لموقف معقد . . . مما يجعل الحياة النفسية غنية والإنتاج دسماً راقياً ممتازاً . . . فلم يكن غريباً بعد هذا كله أن يجذب اللعب انتباه المربين لاستغلاله بأحسن السبل وأنجع الوسائل فى خلق جيل جديد متكامل الشخصية .

(تحرير المجلة)